

## المحاضرة الثالثة: شعر الصعاليك موضوعاته

تمهيد:

عرف العصر الجاهلي قسماً كبيراً من الشعراء الذين ظهرت لديهم ما يسمى "بالنزعة القبلية" أو العصبية القبلية، التي فرضتها القبيلة على كل من ينتسب إليها، وماد دام الشعراء ينتمون إلى قبائلهم، فقد التزموا -بموجب هذا العقد الاجتماعي- بالدفاع عن قبائلهم بأشعارهم. فنشأ عن ذلك ما يسمى بالشعر القبلي، بما تضمنه من أغراض، إلى جانب هؤلاء ظهرت فئة من الشعراء في العصر الجاهلي لا تؤمن بهذا التوجه القبلي.

أما أدبياً: فهو اسم يطلق على مجموعة مكونة من ثلاث طوائف مختلفة وهي كالاتي:

- الخلعاء والشذاذ الذين أنكرتهم قبائلهم وتبرأت منهم مثل "حاجز الأزدي".
- الأغربة السّود، وكانت أمهاتهم إماء، فلم يعترف بهم أبائهم. مثل الشنفرى وتأبط شراً.
- الفقراء المتمردون على الظروف الاقتصادية المختلة، مثل عروة بن الورد. وتجمع بينهم صفات الفقر، والتشرد، والتمرد، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع، والإيمان بأن الحق للقوة، وأن الضعيف ضائع حقه، ويتخذون من الغزو والإغارة للسلب والنهب وسيلة يشقون بها طريقهم في الحياة<sup>(1)</sup>.

### الشعر والاتجاه الفردي:

من الطبيعي جداً أن يتباين الشعراء في مذاهبهم الفنية، وتوجهات الفكرية؛ فمنهم من تذوب شخصيته الاجتماعية والفنية في قبيلته، ومنهم من يشد عن ذلك. يقول الدكتور يوسف خليف: "عرف المجتمع الأدبي الجاهلي طائفة من الشعراء لم تكن شخصياتهم الفنية في شخصيات قبائلهم، ولم يصدوا في فنه عن الشخصية القبلية، وإنما كانوا يصدر عن شخصياتهم الفردية"<sup>(2)</sup>. ومعنى هذا أنهم لم ينظموا فنه الشعري من أجل قبائلهم، بل من أجل أنفسهم، وآمنوا بأن الشعر لا يمكن أن يحاط بقيود القبيلة، مثل امرؤ القيس، وطرفة بن العبد. ومن الشعراء الجاهليين طائفة من أصحاب الاتجاه الفردي في الشعر لكنها تختلف عن مذهب امرؤ القيس وطرفة، في كونها لا تؤمن بالقبيلة، ولا بالنظام الذي يحكمها. وقد تكلم النقاد والدارسون عن هذه الفئة من أصحاب الفردية المغرقة في تقدير الذات، وتقديسها؛ حيث وصفهم الدكتور يوسف خليف، بقوله: "وأما الطائفة الأخرى التي بالغت في فهم الشخصية الفردية، فهي طائفة الشعراء الصعاليك، وهم أولئك المتمردون على النظام القبلي، الكافرون بالعصبية القبلية، المؤمنون بعصبية أخرى شعارها لغزو والإغارة والسلب والنهب"<sup>(3)</sup>. فقد حفل العصر الجاهلي بنماذج من الشعراء الصعاليك، الذين دبّت فيهم روح الفردية، إلى درجة فقدوا فيها إحساسهم بالقبيلة، وانتماءهم إلى

(1) - يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص 57-58.

(2) - يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص 180.

(3) - يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي، ص 187.

المجتمع الذي نشأوا فيه، وحفلت كتب تاريخ الأدب بروايات كثيرة عنهم، تحكي مغامراتهم، وتروي طائفة من أشعارهم.

### لامية العرب:

هي من النصوص الشعرية التي ظهرت فيها نزعة التمرد لدى الشاعر الصعلوك الشنفرى في أوضح تجلياتها، وهي خير ما يتمثل به، في هذا المقام. حظيت "لامية العرب" باهتمام الدارسين والنقاد العرب قديما وحديثا. ومن النقاد الغربيين، والمستشرقين، لما لها من الأهمية البالغة في التراث الشعري القديم، حيث تعد فاصلا بين اتجاهين شعريين مختلفين، هما اتجاه الشعر القبلي، واتجاه الشعر الفردي المتمرد. ولعل ما يهمننا في هذه المحاضرة، هو نزعة التمرد وتمظهراتها في هذا الخطاب الشعري المتميز، يصفها الدكتور عبد الفتاح أحمد يوسف بقوله: "القراءة الأولى للامية العرب، تشير إلى أننا أمام خطاب يخلق خارج سرب النسق الاجتماعي، سواء من الناحية البنائية، أو من الناحية الاجتماعية؛ لأن مؤلفه يقبع خارج حدود ثقافة المجتمع القائمة على التمييز العنصري، والإقصاء، والتشويه الأخلاقي للمختلف أو المغاير من فئة الصعاليك"<sup>(1)</sup>؛ حيث تناول الدكتور أحمد يوسف هذه اللامية من زاوية النقد الثقافي، مركزا على الأنساق الثقافية، وأثرها في تحولات البنية الفكرية والتعبيرية في شعر الصعاليك، والنتيجة هي صراع الإنسان مع الإنسان.

ويرى الدكتور يوسف عليما أن الأنساق الثقافية تعمل على تفعيل الصراع الإنساني في النص، يقول: "تجلى موضوعة الصراع عند الشعراء الجاهليين من خلال ظهور صوت "الأنا" التي تصنع أفقها أو عالمها الذاتي إزاء عالم الآخرين، ولقد تعددت أساليب الشعراء في الإفصاح عن ظهورات هذه الأنوية وسلطتها، ومن ثم تشكيلاتها حسبما تقتضي شفرات الموضوع"<sup>(2)</sup>. فبروز الضمائر الدالة على أن الشاعر تفرض حتم، إخفاءً لضمائر الجماعة، وهذا ما يؤدي إلى كشف المخبات النصية لشعر الصعاليك، من رغبتهم في التمرد على قيم القبيلة، "فالنص الشعري عند الصعاليك مثلا، يتضمن في بنيته العميقة أنساقا مضمرة تعلي من شأن "الأنا"، وتجعل من صنيعها نسقا مهيمنا، على الرغم من ثانويته أو هامشيته، ولا شك في أن تفكيك الأنساق المتشكلة في فجوات النص وتأويلها من قبل المتلقي، تكشف عن حالة الصراع بين نسق قائم ثابت، ونسق آخر متحرك متحول"<sup>(3)</sup>. إن هذه القراءة السيميائية للأنساق الثقافية في الشعر الجاهلي تضعنا أمام صراع بين نسقين ثقافيين متصارعين؛ نسق الجماعة الذي يمثل القبيلة، ونسق الفرد الذي يمثل "أنا" الشاعر الصعلوك المتمرد على نظام القبيلة.

### الظواهر الفنية في شعر الصعاليك: كثيرة منها:

(1)- عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2010، ص216

(2)- يوسف عليما:جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجا، ط1، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 2004، ص53.

(3)- يوسف عليما: جماليات التحليل الثقافي، ص53.

1- الاستغناء عن المقدمات التقليدية: هو إعلان الشاعر أن يستغني عن قومه، ويخرج عليهم، حيث يوجه إليهم خطابه دون مقدمات علا خلاف ما جرت به العادة في الشعر القبلي قائلًا<sup>(1)</sup>:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم      فإني قوم بسواكم لأميل  
فقد حمت الحاجات والليا مقمر      وشدت لطيات مطايا وأرحل  
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى      وفيها لمن خاف القلى متعزل  
لعمرك ما بالأرض ضيق على ارمى      سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

وتخلص الشنفرى من المقدمة الطللية الغزلية، المعهودة في المعلقات، هو علامة فنية على خروجه من نظمهم الشعرية التي فرضتها القبيلة، غير أن الدكتور يوسف خليف يفسر هذا التجاوز الذي قام به الشنفرى في لاميته بمحاولته الشاعر في الحفاظ على "وحدة الموضوع"، يقول: "وهذا طبيعي ما دام لشعراء الصعاليك يحرصون على الوحدة الموضوعية في شعرهم"<sup>(2)</sup>. وفي الحقيقة يمكن اعتبار الخروج عن القبيلة خروجًا، تطلب من الشاعر إسقاط المقدمة الفنية، ليحافظ على الموضوع. أما الدكتور عبد الفتاح أحمد يوسف فيرى أن: "الاستغناء كحركة اجتماعية، تشير إلى نمط فكري مغاير لما هو سائد ومألوف في التقاليد القبلية، وكفكرة فردية يجد صاحبها نفسه محاصرا من قبل ثقافة بلا مثقفين، وافكارا بلا فكر"<sup>(3)</sup>. إن وجود المقدمات الطللية والغزلية لدلالاته في القصيدة، ومن ثم يلتزم بها شعراء النظام القبلي، ويسعون إلى تجديدها، ولعل اختفاء هذه المقدمات التقليدية (الأطلال، الضغائن، الغزل، الشيب، الشباب، الطيف، الخمر)، من شعر الشنفرى له دلالاته، هو الآخر.

ويميز الدكتور عبد الفتاح أحمد يوسف في هذه القضية بين ارتباط كل منهما، من الناحية الزمنية؛ "المقدمة التقليدية تشير في جوهرها إلى ارتباط الشاعر بالماضي، ومن ثم يصبح الماضي علامة على الحياة وسبيلا لها، واختفاء هذه المقدمة في لامية العرب يشير إلى الانفصال عن هذا الماضي؛ لأنه علامة على المأساة"<sup>(4)</sup>. حيث يقرر الشاعر اختيار الزمن الذي يبعده عن هذه المأساة التي عايشها في القبيلة، فهو يبحث عن ذاته الضائعة ليخرجها من سطوة التقاليد الاجتماعية، ول يمنحها القيمة الحقيقية التي تستحقها. ويفسر اختفاء المقدمات التقليدية لدى الشنفرى "تجاهل للمتلقى أو القارئ، فالمقدمة النسبية في القصيدة العربية لها جاذبيتها الخاصة بالنسبة للمتلقى أو القارئ من البداية إلى النهاية"<sup>(5)</sup>.؛ هذه المقدمات التي تكلم عنها ابن قتيبة وجعلها من أهم المفاصل التي لا غنى للشاعر عنها، وحاول أن يلزم بها الشاعر المجيد، فهي التي توصله إلى "الرحلة" في شعره، وبدونها لن ينجح الشاعر في جلب الاهتمام

(1) - الشنفرى: الديوان.

(2) - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص268.

(3) - عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ص220.

(4) - عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ص246-247.

(5) - المرجع نفسه، ص248.

من المتلقي، ولا في التأثير في حدوده. وهنا يقدم الدكتور أحمد يوسف نظرتة في اختفاء المقدمات من شعر الصعاليك، ويربطها بنزعتي العصبية القبلية، والتمرد عليها.

## 2- تغيير بنية الرحلة:

حظيت الرحلة في قصائد أصحاب الاتجاه الفردي المتمردون بدراسته، وتحليل من طرف النقاد والدارسين، في العصر الحديث، ومن بينهم الدكتور عمر بن عبد العزيز السيف في كتابه: "بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز". وقد وصف رحلة الشنفرى، بقوله: "لا تمثل الرحلة في قصيدة الشنفرى الشهيرة لامية العرب بنية من بنى القصيدة؛ بل إن القصيدة بأكملها عبارة عن بنية رحلة ممتدة ومختلفة في عناصرها وعلاقاتها عن بنى الرحلة التقليدية. لاسيما أن اللامية تمثل عند معظم الباحثين مذهباً شعرياً مستقلاً"<sup>(1)</sup>. هذا المذهب الشعري المستقل يرفض صاحبه أن يطوعه لإرادة القبيلة، ولا أن يفخر بها - كما يفعل أصحاب النزعة أو العصبية القبلية، ويؤكد هذا عبد العزيز السيف قائلاً: "ولا شك أن بنية الرحلة" شكل عام تنطوي على فخر بالذات القادرة على تجاوز الصعاب، وهو ما تحتاجه قصيدة الصعلوك الذي لا ينتمي لقبيلته وإنما ينتمي لنفسه"<sup>(2)</sup>. إن اعتداد الشاعر الصعلوك بنفسه، وافتخاره بها أصبح هو الأساس في حركة التمرد، والثورة على الجماعة. وبهذا يتحلل الصعلوك من كل القيود التي تلزمه بها قبيلته، ويحل العقد الاجتماعي بينهما، ومن ثم فإنه يستبدل هذه العصبية القبلية بعصبية مذهبية قوامها الجماعة الجديدة التي ينتمي إليها. تتكون الرحلة في شعر الصعاليك بداية من البيت الأول في اللامية، وإلى آخر بيت منها، ويمكن توضيح بعض ملامح الرحلة في شعر الشنفرى على النحو الآتي:

### 1- إعلان الخروج: يرحل الشاعر في قصيدته دون أن يقف على الأطلال، مُسْقِطاً - بذلك - هذا

التقليد الفني الذي نجده في شعر المعلمات، يقول الشنفرى<sup>(3)</sup>:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم      فإتي إلي قوم بسواكم لأميل  
فقد حمّت الحاجات والليل مقمر      وشدّت لطيات مطايا وأرحل

يخبر الشنفرى قومه أنهم انحرفوا عن القيم الخلقية القويمة التي كانوا قد ورثوها عن أجدادهم، وإلا يفعلوا فسوف يخرج عليهم، ويرحل إلى قوم آخرين، لا يخذلوه، ولا يخونوا قيمهم الأخلاقية، ويرى يوسف اليوسف أن الخروج في شعر الشنفرى هو "الإقامة نحنية جديدة نظراً لإخفاقه في مضمار التكيف مع عشيرته"<sup>(4)</sup>.

(1) - عمر بن عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، الأسطورة والرمز، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2009، ص203.

(2) - المرجع نفسه، ص 203.

(3) - عمر بن عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص207.

(4) - المرجع نفسه، ص270.

حيث يتعمد إسقاط الوقوف على أطلال القبيلة، "فلم يعد ملزماً بالتقاليد التي يرمز لها المكان الذي رحل عنه هو كما رحلت القبيلة"<sup>(1)</sup>. وهو لا يرى أي ارتباط بينه وبين المكان (الطلل)، فإذا كان الشاعر المرتبط بقبيلته في الاتجاه القبلي لا يرى ذاته إلا من خلال استرجاع ذكريات المكان، فإن الأمر بالنسبة للصعلوك مخالف لهذا. فقصيدته تمثل بناءً فنياً واحداً ليس فيه طلل ولا وقوف، ولا استرجاع للذكريات، إنه بنية "تمثل مرحلة الانفصال إلى منطقة مجهولة مليئة بالأخطار لاسيما أنه فرد يعادي مجتمعا، وهو كذلك يصبح مصدر خطر على هذا المجتمع بعد هذا الخروج"<sup>(2)</sup>. ولعل العداء القائم بين الشاعر ومجتمعه أدى إلى تخلخل علاقة الصعلوك بالمكان فيرغب في الانتقال عنه، "لأن علاقة الشاعر بالمكان تغدو مهزوزة ومخلخة وأن هذا الاهتزاز في العلاقة مع المكان يقود الشاعر إلى الانفصال عنه، وتصبح ذات الشاعر بأنها أصبحت خارج المكان، والخروج عنه يحدث صدمة وهزة"<sup>(3)</sup>. وهذا الخروج ملحمي يتطلب الثأر من المجتمع الذي سلب من الشاعر الصعلوك كل ما تطلبه نفسه، ولكي يثأر منه يتحتم عليه الخروج.

بعد إعلان الشاعر الخروج عن قبيلته، ينتقل إلى مرحلة ثانية، هي مرحلة البحث عن مجتمع آخر، يقول<sup>(4)</sup>:

وفيها لمن خاف القلي متعزّل	وفي الأرض منأي للكريم عن الأذى
وأرقط زهلول وعرفاء جبال	ولي دونكم أهلون سيد عمّس
لديهم ولا الجاني بما جر يخذل	هم الأهل لا مستودع السرّ ذائع
إذا عرضت أولى الطرائد أسبل	وكل أبي بأسل غير أنني

يشتمل البيت الأول على دال شعري يمكن أن يقودنا إلى مجموعة من الدلالات المكثفة التي تؤسس لهذا الإعلان بالخروج، هي في قوله: (وفيها لمن خاف القلي متعزّل)؛ حيث تشير إلى تمزق الشاعر بين الانعزال والبحث عن انتماء جديد، والانعزال يعني أن هذا العابر ينتمي إلى ذاته، وهو أمر صعب ومن ثم عاش العابر قلق البحث عن طقس تجمعي لينضوي في مجتمع جديد بعد أن نفته القبيلة وابتعد عنها"<sup>(5)</sup>، إذ يعيش الشاعر ضمن هذا الفضاء الجديد، منعزلاً عن المجموع الذي رفضه وطرده، وتخلي عنه، وهنا تبدأ غربة الشاعر الصعلوك، فهو يخرج وينتقل إلى مجتمع آخر، فيه النمو: أرقط زهلول، والسيد: الأسد، والعرفاء الجبال، الضبع.

إن هذه الحيوانات -على الرغم من الصراع القائم بينها- تشكل مجتمعا يعوض الشاعر عما فقده بين بني جنسه، "فلقد اختار الشنفرى الانتماء إلى هذا المجتمع لأنه وجد فيه عوضاً عما افتقده في

(1) - المرجع نفسه، ص 270.

(2) - عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص 270.

(3) - موسى سامح ربابعة: الشعر الجاهلي مقاربات نصية، ط 1، دار الكندي، عمان، الأردن، 2000، ص 22.

(4) -

(5) - عمر بن عبد العزيز السيف: بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص 209.

مجتمعه الإنساني، أو لأنه وجد فيه القيم التي ضاعت في مجتمعه الأول<sup>(1)</sup>. هذا المجتمع الذي يخشى هذه الحيوانات لأنها : "تمثل خطراً دائماً على الإنسان وماشيته، والشنفوى جزء من هذا الخطر لاسيما أو الروايات وصفته بالسواد"<sup>(2)</sup>، ومن المعلوم أن العرب قديماً يكرهون السواد لارتباطه بكل ما يخيف من الحيوانات المفترسة.

### 3- اختفاء أغراض تقليدية:

من أهم الخصائص الفنية التي يتميز بها شعر الصعاليك عن شعر الاتجاه القبلي، في المعلقات، هو تمرد الشاعر على الموضوعات والأغراض الشعرية التقليدية من مدح، وهجاء، ورتاء، ذلك لأنها مرتبطة بالقبيلة، يؤكد الدكتور أحمد يوسف هذه الميزة، بقوله: "اختفاء معظم موضوعات الشعر الجاهلي، لاسيما الموضوعات التي تحفل بالجماعة والقبيلة مثل المديح، والفخر القبلي، اختفى المديح وحل محله نقد السلوك الإنساني بصفة عامة"<sup>(3)</sup>؛ فقد ألغى الشعراء الصعاليك هذه المقتبسات الفنية، وحرصوا على موضوع واحد، يعبرون فيه عن ذاتهم المتمردة على القبيلة وحرصوا على الاستغناء عن المديح والفخر والهجاء، لأنها لا تلبى حاجياتهم الفنية، ولا النفسية. وقد تكلم الدكتور يوسف خليف على هذا "التمرد الفني"، عند حديثه عن المظاهر الفنية لشعر الصعاليك، يقول في ذلك: "قالناظر في شعر الصعاليك تألفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده"<sup>(4)</sup>. فبدلاً من أن يمدح الشاعر الصعلوك القبيلة نراه يفتخر بنفسه، منتقداً لسلوك الأفراد في القبيلة، فيقول<sup>(5)</sup>:

ولست بمهيفاف يعشى سوامه	مجدعة سـقـبـانها وهي بهـلـ
ولا جببأأكهى مربب بعرسه	يطالعها في شأنه كيف يفعل
ولا خرق هيق كأن فواده	يظل به المكاء يعلوا ويسفل
ولا خالف دارية، متغزل	يروح ويغدو داهنا يتكحل
ولست بعـل شره دون خيره	ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل
ولست بمحيار الظلام إذا انتحت	هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

في هذه الأبيات ينفي الشنفوى عن نفسه جملة من الصفات الذميمة، التي يراها في أبناء القبيلة التي نشأ فيها، ثم تمرد عليها؛ فهو ليس راعياً يتعد بإبله على غير علم فيعطشها، ويجوع صغارها، وهو لا جباً كدر الأخلاق بليداً، ولا يبقى مع زوجته في البيت يستشيرها في كل أموره، إنه لا يعرف الخوف ولا الدهشة في مواجهة المواقف، ولا يتخلف عن عمل الخير، ماكتاً في داره، ولا يرضى لنفسه الذل والهوان، ولا أن يبقى عالية على غيره، يطعمونه ويسقونه، إنه لا يتأخر عن الحرب، ولا يخاف من الظلام، كما

(1) - فوزي عيسى: النص الشعري وآليات القراءة، (د،ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2006، ص119.

(2) - عبد العزيز السيف: المرجع السابق، ص209.

(3) - عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، ص248.

(4) - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص264.

(5) -

يخاف الهوجل أي الرجل الطويل الأحمق المتسرع. حول الشاعر الفخر القبلي، إلى فخر ذاتي فردي، فقد "اختفى الفخر القبلي، وحلّ محله إعلاء الذات وإظهار عفتها، وترفعها عن الدنيا والصغائر، واستبدال المجتمع الإنساني بعالم آخر هو عالم الذئاب"<sup>(1)</sup>. وفي هذا يؤكد الدكتور عبد الحليم حفني أن الأغراض الشعرية التي كان لها حضورها فب الشعر القبلي، قد اختفت من قصيدة الصعلوك، ولم يعد لها قيمة بذاتها، بل قيمتها بمدى تصويرها بواقعه، يقول: "ولو رجعنا إلى كل الموضوعات والأغراض التي طرقها شعرهم، لوجدناها جميعا تصويرا لواقعهم الذي يعيشون فيه"<sup>(2)</sup>.

وهذه حقيقة لا يمكن للدارسين إغفالها، فكل ما نجده في شعر الصعاليك من فخر ووصف، وعدو وغارات، وغير ذلك مرتبط بالذات لدى كل واحد منهم، وتسجيل لأحداث شخصية، ليس فيها أي ارتباط بالاتجاه القبلي، "فحين نقلني نظرة على شعرهم في هذه الأغراض جميعا، نعلم أن شعرهم أشبه ما يكون بالذكوات الشخصية"<sup>(3)</sup>. مما سبق نستخلص أن الأغراض الشعرية التقليدية، غير موجودة في أشعار أصحاب الاتجاه الفردي المتمرد، من الصعاليك، فهي غير مقصودة لذاتها، وإنما مرتبطة بذاتية الشاعر الصعلوك، الذي يرى في تلك الأغراض قيودا تكبله، وتحصره ضمن نطاق القبيلة، وهذا يعين أن اختفاءها من شعره تعبير عن رفضه هذه التقاليد الفنية وتورثه عليها، واليت عبر عنها بهذه البنية الشعرية المنفردة، كما يعني أنهم ير معنيين بالمجتمع، ومنتشغلين بقضاياهم الذاتية، وأن مشاعرهم منفصلة عن مشاعر الجماعة.

**موضوعات شعر الصعاليك: موضوعات شعر الصعاليك كثيرة، منها:**

**1. الجبل - أو المرقبة:** ورد في شعر الصعاليك، سرد لحكاياتهم عن تربيهم بأعدائهم، وعن مغامراتهم، من أماكن غير محددة جغرافيا، ولكنهم أشاروا إلى طبيعتها بالوصف الدقيق، فسموها "المراقب"؛ أعالي الجبال، وقممها، فكانت الملجأ، منها يترصدون، وعليها يترصدون لضحاياهم، فيخططون لرصد الهدف، لتحين الفرصة للانقضاض والإغارة، وكثيرا ما كانوا يختارون الليل لتنفيذ خططهم، كما يصور الشنفرى - في إحدى قصائده - إحدى المراقب التي كان يلجأ إليها مترصدا، مترصدا، في قوله: <sup>(4)</sup>

وَمَرْقَبَةٍ عَنَاءٍ يَفْصُرُ دُونَهَا	أَخُو الضَّرْوَةِ الرَّجُلُ الْحَفِيُّ الْمُخَفَّفُ
نَعَيْتُ إِلَى أَدْنَى ذُرَاهَا وَقَدْ دَنَا	مِنَ اللَّيْلِ مُلْتَفًّا الْحَدِيقَةَ أَسَدَفُ
فَبِتُّ عَلَى حَدِّ الدَّرَاعِينَ مُجْدِيًّا	كَمَا يَتَطَوَّى الْأَرْقَمُ الْمُتَعَطَّفُ
وَلَيْسَ جِهَازِي غَيْرُ نَعْلَيْنِ أَسْحَقَتْ	صُدُورُهُمَا مَخْصُورَةً لَا تُخَصَّفُ
وَضُنِّيَّةٍ، جُرْدٍ وَإِخْلَاقٍ رِيْطَةٍ	إِذَا أَنْهَجَتْ مِنْ جَانِبٍ لَا تُكْفَفُ

(1) - عبد الفتاح أحمد يوسف: لسانيات الخطاب، ص 249.

(2) - عبد الحليم حفني: شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص 378.

(3) - المرجع نفسه، ص 374.

(4) - الشنفرى: ديوان الشنفرى، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط 02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996، ص 53.

إن الشنفرى، في هذه الأبيات، يرقى إلى أعلى الجبل، ويتخذة مرقبة يعجز الآخر أن يصلها ليستقل بشخصيته و فرديته، "الفرد كائن ما هو كائن عليه، وإتّما بفضل ذاتية الشخصية، هذه الشخصية التي ترتكز، بالتالي، لا إلى المضمون و إلى حماسته الثابتة، بل بصورة شكلية إلى الإستقلال الفردي".

## 2. التوعّد والتهديد:

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن التريص والترصد تحدثوا عن التوعّد والتهديد، حتى يجمعوا بين ركني الجريمة القانونيين: التريص وسبق الإصرار! وأكثر من يتوعدهم الشنفرى بنو سلامان، أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم، والذين كانوا السبب المباشر لتصلكه، والذين عاهد نفسه ليقتلن منهم مائة بما اعتبده. وهو يتوعدهم في شعره توعدا عنيفا، فيعلن لهم أنه -ما لم يحل الموت بينه وبينهم- لن يكف عن غزوهم، فالمسألة عنده مفروغ منها، وكل ما يرجوه أن يمد الله في أجله حتى يشفي غليله منهم حين يلاقهم في عقر دارهم:

فإلا تترنّي حتفتي أو تلاقتي      أمش بدهو أو عدا فبنورا  
أمشي بأطراف الحماط، وتارة      ينفذ رجلي بسبيطا فعصنصرا  
أبغي بني صعب بن مر بدارهم      وسوف ألاقهم إن الله أخرا  
ويوما بذات الرأس أو بطن منجل      هنالك نبغي القاصي المتغورا

وهو إذا كان يتأخر عن غزوهم أحيانا فليس هذا دليلا على أنه قد كف عنهم، وإنما هو يمهلهم إلى حين، وهو واثق من قدرته على غزوهم، فهو يعرفهم وهم يعرفونه، وأحب شيء إليه أن يُغير عليهم، وأن يقطع الطريق على سادتهم، وهو الخبير بطرق الصحراء ومسالكها، القدير على الاهتداء في مجاهلها:

كأن قد، فا يغرك مني تمكثي      سلكت طريقا بين يربغ فالسرد  
وإني زعيم أن ألف عجاجتي      على ذي كساء من سلامان أو برد  
وأمشي لدى العصدااء أبغي سراتهم      وأسلك خلا بين أرفاغ والسرد  
هم عرفوني ناشئا ذا مخيلاة      أمشي خلال الدار كالأسد الورد  
كأني إذا لم أمس في دار خالد      بتيماء لا أهدي سبيلا ولا أهدي

أما عمرو ذو الكلب فيعلن أعداءه بأن الصراع بينه وبينهم سيكون مريرا لا رحمة فيه، الويل فيه للمغلوب، وينذرهم بأنه لن يرحمهم إذا ظفر بهم، كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا هم ظفروا به، فليكن الصراع بينه وبينهم عنيفا، وليغزهم برفاقه الصعاليك الشجعان الذين يختلف عددهم بين الواحد والجماعة، وهو -فوق ذلك كله- يتوعدهم بأنه لن يكف عن غزوهم حتى يقتلهم ويرمل نساءهم:

فإن أئقتموني فاقتلوني      وإن أثقف فسوف ترون بالي  
فأبرح غازيا أهدي رعبيلا      أوّم سواد طود ذي نجال  
ويبرح واحد واثان صحبي      ويوما في أضاميم الرجبال  
بفتيان عمارط من هذيل      هم ينفون أناس الحال



## وأبرح في طوال الدهر حتى أقميم نساء بجالة بالنعـال

3-أحاديث المغامرات: يقول الدكتور يوسف خليف: "من الطبيعي -ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها "الغزو والإغارة للسلب والنهب"- أن يكون أكبر ما يُعنى به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم؛ لأن هذه المغامرات هي "الحرفة" التي قامت عليها حياتهم، والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم. وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها في حياته، المعجب بها، الفخور ببطولته فيها، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت في وجهه سبل النجاة"<sup>(1)</sup>. فهذا الشنفرى يخرج في عدة من فهم فيهم عامر بن الأخنس وتأبط شرا والمسيب وعمرو بن بركة ومرة بن خليف يقصدون العوص، وهم حي من بجيلة، فلما انتهوا من الغارة، وأخذوا طريق العودة، اعترضت لهم خنعم، ودارت بينهم معركة انتهت بانتصار الصعاليك، فإذا ما انتهت المعركة فرغ الشنفرى إلى فنه يحدثنا عنها حديثا رائعا فيه دقة وتفصيل، يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج لها، غير مبال بحياته أو حريص عليها، وفيه المبالاة أو الحرص وهو يعلم أن أجله لا بد آت في يوم من الأيام:<sup>(2)</sup>

دعيني وقولي بعد ما شئت إنني	سيغدى بنعشي مرة فأغيب
خرجنا فلم نعهد وقلت وصاتنا	ثمانية ما بعدها متعتب
نمر برهو الماء صفحا وقد طوت	ثماننا، والزد ظن مغيب
ثلاثا على الأقدام حتى سما بنا	على العوص شعشاع من القوم محرب
فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا	وصوت فينا بالصباح المثوب
فشن عليهم هزة السيف ثابت	وصمم فيهم بالحسام المسيب
وظلت بفتيان معي أتقيهم	بهن قليلا ساعة ثم خيب
واوقد خر منهم راجلان وفارس	كمي صرعناه وخنوم مسلب
يشن إليه كل ريع وقلعة	ثمانية، والقوم رجل ومقتب

(1) - يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص 182.

(2) - الشنفرى: ديوان الشنفرى، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1996، ص 27-28.

#### 4. وصف الأسلحة:

ومن الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم، فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم، تلك القوى الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا في رثاءة للشنفرى حيث يقول:

**فلا يبعدن الشنفرى، وسلاحه الـ حديد، وشد خطوة متواتر**  
والأسلحة التي يصفها الشعراء الصعاليك هي تلك التي كان يعرفها العرب في العصر الجاهلي، سواء منها أسلحة الهجوم: السيف، والرمح، والقوس، والسهم، أو أسلحة الدفاع: الدرع، والترس، والمغفر. ويلح الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحا شديدا، وليس في هذا غرابة؛ إذ إنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم الفقيرة، وهي من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه في هذه الحياة الحمراء المتمردة. وفي أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لورثته بعد موته سوى درع ومغفر وسيف ورمح وجواد، فهذا كل ما يحرص عليه في حياته، وكل ما سيظل محافظا عليه إلى آخر رفق منها حتى يرثه ورثته من بعده.

ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة وصف المفتون بها الذي يهتم بكل أجزائها، ويحرص على أن يسجل في حديثه عنها كل شيء فيها: لونها، وشكلها، وصوتها، وطريقة صنعها، وطريقة استخدامها، وقيمتها في حياته، وفعلها في أعدائه.

فالسيف عند عمرو بن براقة "جل ماله" لا يفارق يمينه، بل هو طوع أمرها، ولكن لحمه تقاليد، فصاحبه يجب أن لا ينام الليل؛ إذ إن من تقاليد حملة أن يكون صاحبه من "أبناء الليل" الذين يرعون حق "أبوتة":

**وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم**  
**غموض إذا عض الكريهة لم يدع له طعاما، طوع اليمين ملازم**

وهو عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد أن تجتنبه المظالم في ذلك المجتمع الذي يدين بشريعة القوة:

**متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم**

أما تأبط شرا فيعرض علينا صورة طريفة لسيفه، فهو -إلى جانب أنه حاد ثقيل لا يفارقه حتى أبلى محمله- سيف أصيل إذا كل لا يحتاج إلى صيقل، وإنما حسبه أن يحده صاحبه على الصخر فإذا هو حاد كما كان:

فطار بقحف ابنه الجن ذو      سفاسق قد أخلق المحملا  
إذا كل أمهيته بالصفا      فحد ولم أره صـ يقلا

وأما الشنفرى فيهتم بأثر سيفه في أعدائه، وبالحدِيث عن براعته في استخدامه، فهو يقصد به  
أطراف سواعدهم، ليعجزهم بذلك عن العمل:  
وأبيض من ماء الحديد مهـند      مجذ لأطراف السواعد مقطف

وهو حريص على أن يصور رفاقه ونفسه في غاراتهم وهم يستخدمون سيوفهم في الهجوم والدفاع حتى  
ينهزم أعداؤهم:

فشن عليهم هزة السيف ثابت      وصمم فيهم بالسهم المسيب  
وظلت بفتيان معي أتقيهم      بهن قليلا ساعة ثم خبيوا

ولا يعدل وصف السيف عند الشعراء الصعاليك إلا وصفهم القوس والسهم. وأكثر من اهتم بوصفها  
منهم الشنفرى والهذليون. ويبدو أن مرد هذه الظاهرة الفنية إلى ظواهر اجتماعية خاصة في حياتهم، فقد  
كان الشنفرى -كما يصوره الرواة مفتونا بسهامه، حريصا على أن تكون معلمة يعرفها الناس، فكان يميزها  
بعلامة خاصة حتى تعرف، ويحدثنا الرواة أنه كان "يصنع النبل ويجعل أفواقهم من القرون والعظام"،  
فكان أعداؤه إذا رماهم "يعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم" ، وأما الهذليون فقد عرف عنهم الرمي من بين  
ثلاث صفات مميزة سجلها لهم القدماء .

وهم يصفون السهام في جميع أطوارها، منذ بريها، وتركيب الريش فيها، حتى استخدامها، في  
الرمي، كما يصفون نصالها وأفواقها. ويتحدث الشنفرى في بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها، وكيف  
يركب في قدامها الريش، وكيف يتابع فيها البري حتى تصير صالحة للاستعمال، ثم يتحدث عن قيمة  
هذه السهام التي أعدها هدية لأعدائه الذين يبغضهم:

وردت بمأثور يمان وضالة      تخيرتها مما أريش وأرصف  
أركبه في كل أحمر غائر      وأنسج للولدان ما هو مقرف  
وتابعت فيه البري حتى تركته      يرن إذا أنزفته ويزفـزف  
بكفي منها للبغـيض عراضة      إذا بعثت خلا ما له متعرف

ويتحدث في مقطوعة أخرى عن رمية أحد أعدائه بسهم قوي لا عوج فيه، ثم يصف أجزاء هذا السهم، فهو عود من نبع عليه ريش من ريش العقاب، وله فوق كأنه عرقوب القطة:  
ومستبسل ضافي القميص ضمته بأزرق لا نكس ولا متعوج

وفي الأخير نستخلص أن "نزعة التمرد" شكلت ظاهرة أدبية وفنية، في الشعر الجاهلي؛ حيث برز أصحاب هذا الاتجاه الفردي، في مقابلة أصحاب الشعر القبلي، وقد عمد شعراء الصعاليك إلى الخروج عن النمط الشعري والفني الذي فرضته أعراف وتقاليد المجتمع القبلي. وقد تميز شعر الاتجاه الفردي المتمرد بمجموعة من المظاهر والسمات تمثلت في ثلاثة نقاط أساسية، هي:

أولاً: الاستغناء عن المقدمات التقليدية.

ثانياً: تغيير نمط الرحلة وبنائها.

ثالثاً: اختفاء الأغراض الشعرية القديمة.

وتعد هذه المظاهر الفنية مظاهر للتمرد الفني والشعري عند الشعراء الصعاليك، من الناحية الشكلية.

أما من حيث المضامين فقد أسفر شعر الصعاليك عن بروز ذات الشاعر في تجليات مخالفة تماماً، لنمط الشخصية لشاعر) الذي كرس شعره لمدح قبيلته، وذابت شخصيته في المجتمع القبلي، فقد فض لصعاليك هذه السلطة التي تفرضها القبيلة على الفرد بظلم، ولذلك عاشوا حالات من الاغتراب في قبائلها، وظلوا يبحثون عن تحقيق الذات، وحينما لم يفلحوا قرّروا الخروج والارتحال إلى مجتمع يحترم ذاتهم ويقدرهم.

وقد كان شعر الصعاليك ممثلاً لتيار شعري يمكن أن يوصف بالتجديد في ذلك الزمن، الذي لم يكن التجديد فيه أمراً سهلاً، فهذه مبادرة شخصية أثرت في مسيرة الشعر الجاهلي، وغيرت مجرى التقاليد الفنية السائدة.